الفصل الخامس عشر

قوانين مصر فى دولة السلطان سليم بن با يزيد

ـ نوّر الله مضجعهما بأنوار الغفران ـ

قدم سليم من الإسكندرية وبإذن من علماء مصر جميعًا أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضاء الديوان فى جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألف رجل لأن فى ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبة باسم سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين سليم خان بن با يزيد خان أيّد الله سلطنته إلى آخر الزمان.

وبإذنهما الشريف سُكَّت العملة وكتب عليها «صاحب النصر ضارب النصر عز والنصر فى البر والبحر السلطان بن السلطان سليم خان بن با يزيد خان ـ عز نصره ـ مصر سنة ٩٢٢».

وبعد ذلك جمع سليم ذات يوم الديوان السلطانى، وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم فى السن والرتبة، ووضع سليم يده فى يد خيرة بك، وأجلسه على سرير النيابة والخلافة، ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليمى وريشة نفيسة، وعلى ظهره خلعة فاخرة من السمّور، وحول خصره منطقة مرصعة تعلق فيها خنجر مرصع، وحرص سليم على أن يلبسه كل ذلك بنفسه، ورفع يده بالدعاء، وقال: لقد جعلتك يا خير بك وزيرًا ونائبى فى هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام فأنا لا رغبة لى فى شىء من مصر، لقد ظفرتُ بلقب خادم الحرمين الشريفين وكفى، ووقفت جميع محاصيل مصر على النبى ﷺ فاشهد ومن الآن فصاعدًا يا خير بك أنت مولى هذا الوقف؛ فأحسن خدمتُه.

ومنح من يتبعون موكبه اثنى عشر ألف دينار ذهبًا كما منح خدام القصر ثلاثمائة منطقة مرصعة، كما منح اثنى عشر سرجًا مزينًا بالجواهر واثنتى عشرة جعبة للقائمين على سياسة الخيل وسبع قِسِىٍّ خسروانية، كما منح خيامًا ذات ثلاثة أعمدة ومظلة، وجعل لأربعين من خدام القصر طوغين لكل منهم، كما جعلهم أمراء على مصر.

وجعل مائة من الأغوات بكوات من الشراكسة، وأمر بأن يُعطل الديوان ثلاثة أيام فى الأسبوع وأيام العطلة هى الجمعة والسبت والأربعاء ويحضر قاضى العسكر الديوان خمسة أيام ويقدم للديوان فى كل يوم كيسان من دنانير ( )[1]، ويُقدم ثلاثة آلاف صحف من طعام، ويطعم كل أعضاء الديوان والخدم والآتون من بعيد (.....)[2]، وجعل سليم ذلك قانونًا لچاوشية الديوان كل يوم خمسة خراف وأردب من أرز وكيلتان من العدس والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الأئمة والمؤذنين راتبًا، ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشافًا، وفى دواوينهم يبسط كل يوم سماط فى الصباح وسماط فى المساء، وذلك من المال السلطانى، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساء الفرق بعد سماطهم يبسطون الموائد للعوام والخواص، وفى كل وقت من أوقات الطعام تقرع الطبول لينبه جميع الجياع، وجعل ذلك قانونًا، ودامت هذه النعمة وما كانت مثل هذه النعمة فى بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطانى، ويقدم من قِبَل السلطان لخاصته اثنا عشر حملاً وسبع وأربعون ألف أقجه وكان ولاة مصر وبغداد والحبشة واليمن والعراق يضعون ريشة على عمائهم المعروفة بسليمى، وكان هناك خان التتار يحكم فى بلاده ويأتى بعده فى الترتيب والى مصر، ثم ولاة العراق فتابعة اليمن، وأخيرًا بُودُمْ وهؤلاء الوزراء الخمسة يَنُوبُونَ عن السلطان فى الحكم ولهم صفته.

وبما أنهم كانوا يضعون الريشة على رءوسهم كانت لهم الدرجة على من سواهم من الوزراء. ووزير مصر طبقًا للخاصة السلطانية إذا ما عين قائدًا على الحبشة أو اليمن أو العراق فإنه يلزم عليه أن يمضى به هو وجنوده و( )[3] إلى هذه المناطق، وبهذا صدر قانون سليمى. أما فى الوقت الحاضر بما أن الغلبة لجند مصر فإن جميع الأقاليم يسرى عليها قانون سليم ولا يبقى شىء تابعًا للوالى إلا أنه يسكن القلعة الداخلية مع ألف من جنوده، وأغواته جميعًا يعيشون على ما يصرف لهم من مرتبات طبق القانون، كما يوجد أربعة وعشرون رئيسًا للموانى وهم يعيشون على الكفاف. وللباشا ثلاثمائة

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

من الأغوات وخيامهم، وفى كل عام تُوزَع عليهم الأقمشة والثياب والقمصان والنعال كما يتم كساء كعبة الله بالكسوة السوداء من وقف السيدة شجرة الدر قانونًا مرعيًا. لأن شجرة الدر وهى من ملوك السلف كانت تدفع مرتبًا سنويًا لأغوات الخارج وأغوات الداخل التابعين لها؛ وقد أحصى السلطان سليم أوقاف شجرة الدر هذه وقال: إن شجرة الدر وهى امرأة كست الكعبة بالحرير الأسود، وقد أصبحت الآن سلطان مكة والمدينة وعلىّ أن أكسو الكعبة الشريفة من أعلاها إلى أسفلها بالديباج والقماش المزركش وبالذهب واللؤلؤ إلا أن علماء مصر جميعًا وشيوخ المذاهب الأربعة والشيخ أبو السعود الجارحى لم يقروه على ذلك فيما سلف ذكره، وقالوا إن كسوة شجرة الدر لم يتيسر لأحد غيرها، إلا أن الله قدّرها على ذلك، والآن هذا الوقف وقفها، وشرط الواقف كنص الشارع». فغبطها سليم على ذلك وقال: مضت المرأة، فما أعظم ما عملت من خير لم يتيسر لغيرها من الملوك.

وماذا يمكننا أن نصنع نحن فى مكة والمدينة، فقام بعمل كسوة باب الكعبة الشريفة بالحرير الأخضر. ومزركشة بالذهب، وجَدّدَ بناء مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجعل الصندوق الشريف مكسوًا بالذهب وستارة باب منبر الحرم الشريف مزركشة بالذهب وعَمَّر ورمَم الحرم الشريف. أما البيت الذى ولدته فيه السيدة أمينه ـ رضى الله عنها ـ فقد جُددَت قبته وكُسيت بالرصاص. وبنى فى مكة مائة أثر للسلطان وتُلِيَت الخطبة لسليم أول ما تليت لآل عثمان فيها، وجعل على قبره الشريف ﷺ من الجواهر ما يبهر العيون ووزّع الصدقات فى المدينة بلا حساب وجعل كمال باشا زاده قاضى مصر يقوم بمسح ألف قرية وقصبة وبلدة فى مصر. والحاصل أنه أمره بأن يسجل كل ما يطير فى الجو من طائر وما يدب على الأرض من دابة وما يسبح فى البحر من سمكة، ووزع المقاطعات على الملتزمين والأمناء. ووقف كل ذلك على الحرمين الشريفين. ودُونت جميع قرى ولاية مصر وعددها ( )[1] قرية، وهى منقسمة أربعة أقسام. **والقسم الأول** ( )[2] قرية وهى جميعًا من أوقاف ملوك السلف، وقدر الوقف

(١، ٢) بياض فى الأصل.

بعدد أفدنته ووكـل به ناظر يدير شئونه ويحـصل إيراده فيعطى منه رواتب جـملة الأئمة والمشايخ والمسَّاحين والمعرّفين، أما ما يتبـقى من ذلك فيرد إلى المال الأميرى وسُنَّ بذلك قانون خاص.

أما **القسم الثانى** فهو قرى الكشوفية، وهم ( )[1] قرية على كل منها كاشف وهى خاصة بـالباشا ويعاونه فى جـميع تحركاته مائـة أو مائتا جندى، ويُحصّـل الباشا أموال الكشوفية وقدرها مائتا كيس فى العـام، أما فى زماننا إذا أصبح البلد عاطلاً عجز الملتزم عن دفع ما علـيه من أموال ويغادر القرية وتؤول إلى الباشا وتصـبح قرية كشوفية ويجمع الباشا الرعايا ويخطرهم بذلـك، ويزرعها ويحصل منها المال، وإذا كان لها من يطلبها أعطاه الباشا إياها لأنه عمرها بنفسه.

وقسم ثالث هو أراض خاصة بالسلطان فيها كشـافون لهم رتبة البك، وعددها سبع عشرة وجملتها ( )[2] ألف قرية تحت إدارة الكاشف، وكل كاشف يقدم له مائة رجل من السبـع فرق، ويُطعِم الكاشف كذلك خـمسمائة أو ستمائة مـن السكبان[3]، ويحصَّلَ المال الـسلطانى من ولايته والثلـث الأول والثلث الثانى والثلـث الثالث والمال الصيفى والشـتوى وما إلى ذلك من أموال يجمعـها بمعاونة العسكر ويدفـع منها رواتب الجند ونصيب خزانة الـسلطان، وثمة ضريبة من خمسمائة أو سـتمائة أو ألف كيس من القروش تدفع مـن كيس السلطان لمن يطـوف الولايات من أفراد الفرق السبـع ولم يقنع الجورباجية[4] بخمسة أكياس فأطلقوا بعض المجرمين من سلاسل الكاشف.

والقسم الرابع إذا كان الملـتزم فى شدة آلت قريـته للدولة ويبـيعها الباشـا فى المزاد بأربعين كيسًا أو خمسين إلى مائة كيس وكل رعاياه وتركاته تصبح مزاداً سلطانيًا.

ومن قانون سليم أن يأخذ الباشا ثمن ما يبيـع ويلتزم من اشترى للبلد حين التسجيل إذا أخذ ( )[5] عليه تـسديد كل عام المرتبـات وصرّة مكة والمدينـة وكل ما فاض سواء كان كيسًـا أو مائة كيس كان مالاً له، ويُعـمِّر القرية ويكون له حـق التصرف فى

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) السكبان: نوع من المشاه.

(٤) الجورباجيه: قسم من الضباط فى فرقة الانكشارية.

(٥) بياض فى الأصل.

تلك القرية مدى حياته، ولا تؤول إلى أبنائه بعد وفاته بل تصبح ملكًا للدولة، وسُنَّ بذلك قانون.

وقد أقام سليم فى مصر عام، ثم اتجه إلى رشيد والإسكندرية سنة، ووصل إلى إستانبول عام ٩٢٣هـ وتوفى عام ٩٢٦هـ وخلفه ابنه سليمان المُلقب بسليمان الأصفر.

القسم الخامس: ما يدفعه كل ما فى مصر من الكفرة واليهود والقبط والأرمن والفرنجة بناء على شريعة النبى ﷺ وحاصل الكلام أن أمين الجوالى حاكم آخر ويسلم مائة ( )[١] إلى الدفتردار فى الديوان السلطانى، ويرسل الصرة إلى مكة والمدينة كل عام مع أمير الحاج.

والقسم السادس كل معمور من القرى فى مصر يرسل ريعه إلى أغا دار السعادة* باسطنبول، وإذا مات الأغوات يسجل الباشا جميع قراهم ومخلفاتهم وهذا طبق قانون سليم وفى عهد ( )[٢] وإبراهيم باشا صدر فرمان يقضى بتعيين أغا أمينًا لبيت المال من قبل أغوات القرى، وبناء على أمر ( )[٣] حفظ كل جزئى وكل كلى، ويعين الباشا كذلك أغا مباشرًا ويوقع جميع ( )[٤] عليها؛ ويعرض الباشا على السلطان ويأتى من الأستانة رئيس البوابين أو ( )[٥] والأموال والقرى المذكورة تمنح لعبدٍ أو تُباع ( )[٦] وعلى ذلك فإن الأغوات السود يؤدون مال قراهم إلى السلطان، ومهما كان قدر ما يتبقى فإنهم يتصرفون فيه على أنه خاص بهم.

أما القسم السابع فبموجب قانون سليم يُسَجل الباشا ما يتقاضاه الانكشارية والعزب والمتفرقة، والمتطوعة، والجند حملة البنادق، والأيتام، والجوالين وجميع طوائف الجند، ولكن منذ عام ١٠٧٠ تغلبت فرقة المستحفظان أو الانكشارية وفرقة العزب واستولوا على بيت المال لأنفسهم، وهُم عدة آلاف من الفلاحين من المواطنين استولوا على بيت المال وإذا ما أُمروا بالحرب فإنهم يحصلون على نفقاتهم من بيت المال. وإذا ما اعتنق كافر الإسلام واتفق له أن وصل إلى بابهم يكسوه، كما يقدمون للغريب الغذاء والكساء

(١ : ٦) بياض فى الأصل.

* أغادار السعادة: رئيس الأغوات العاملين فى القسم الداخلى من القصر العثمانى الذى يعيش فيه السلطان مع نسائه وهو المسئول الأول عن تنظيم العلاقة بين هذا القسم والعالم الخارجى. ويتمتع بدرجة رفيقة من البروتوكول العثمانى، كما أنه المسئول عن أوقاف الحرمين الشريفين.

وإذا ما وقع أحد مواطنيهم أو زملاؤهم فى أسر الكفار يدفعون له فدية قدرها عشرة آلاف قرش ويخلصونه من أسره.

ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع الباشا أن يسيطر على بيت المال ولكنه يسيطر على بيت مال الغير من العامة والخاصة، ويكلفون جاويشية الفرق السبع وقاضى العسكر يكلفون القسّامين بتدوين المال، وبإذن أغا الباشا يودعون المال فى خزانة الباشا، لأن على الباشا التزامًا يرعاه، وتوزع الرواتب من المال المحصل، وإذا ما ظهر وارث لمتوفى واستطاع إثبات ذلك فإنه يطلب مال قريبه المتوفى من الباشا بموجب دفاتر جاويشية الفرق السبع ودفتر القسّام؛ وينال الوارث حقه.

القسم الثامن: القرى الموقوفة على مكة والمدينة فى أقاليم مصر «يرسل منها مصروفات قدرها اثنان وستون ألف كيس مع خمسة وستين ألف دينار من ذهب فى الصرّه وتسلم الصرّة إلى أحد أغوات الباشا وسبعمائة جندى من السبع فرق، ويسلمونها أمين الصرّة فى الشام الشريف، وعليه إحضارها إلى المدينة ولذلك قانون مرعى، ومن قبل كان السلطان سليم يرسلها من اسطنبول وكان قانونًا سليميًا، كذلك يُرسل من مصر ستمائة كيس من ستة آلاف وقف وكان يمضى بها أمير الحج المصرى لتسليمها إلى جميع الأشراف والمشايخ والمجاورين فى مكة والمدينة.

أما القسم التاسع: فهو أن ما يُتحصل من أقاليم مصر وقراها وعددها سبعمائة قرية وقصبة مثل مطوبس طاروط الشريف وصنبو وجملته ( )[1] أردب من الغلال تشحن فى سفن تسمى السفن المحمدية إلى مكة والمدينة وسوف تذكر القوانين الأخرى فى موضعها.

* * *

(١) بياض فى الأصل.